خرائب الشام

للجنرال السر تارلس ولسن

من خطبة تلاها في الاجتماع السنوي لجمعية الكتب في فلسطين مع اضافات اضطرها اليها وضعناها بين قوسين

ان اهتمام هذه الجمعية بالتنقيب عن آثار فلسطين مهم جدًّا لان تلك البلاد قد اخذت تتغيَّر في هذه الاثناء تغيُّرًا عظيمًا لا يقدر أن يتصوره مَن لم يزُرْها حديثًا . وممَّا يدعو الى الاسف ان المفتشين عن القبور الذين اضرُّوا بآثار القطر المصري ضررًا بليغًا اخذوا يفعلون ذلك في فلسطين ايضًا وقد وجدوا في قبور السوسيَّة شرقي بحيرة طبرية كثيرًا من الحلى الذهبيَّة والآنية الخزفية وباعوا ما وجدوه سرًّا في اماكن مختلفة امثالاً يدري بهم ولاة الامور . ولا بدَّ من ان يكون لكثير من تلك الآثار قيمة علميَّة لان السوسيَّة اقامها المكدونيون بعد ما تغلَّب الاسكندر المكدوني على بلاد الشام

والتغيُّر الطارئ على فلسطين الآن من نوع التغيُّر الذي طرأ على اوربا في القرون الوسطى فان الاوربيين تسارعوا الى الارض المقدسة منذ عشرين سنة وتباروا في انشاء الاديرة والكنائس وكثيرًا ما اتلفوا اثرًا قديمًا كبير الفائدة ليبنوا مكانهُ بناء ضخمًا خاليًا من كل نظام هندسي في اورشليم مثلاً وجد اليونان اساسات كنيسة مريم العذرا التي بناها اللاتين في القرن الثاني عشر للميلاد فخربوها واتلفوا ما فيها من تيجان الاعمدة التي نقلت اليها من كنيسة الملك قسطنطين ووجدوا هناك خزانة قديمة فيها اثر من آثار ملك نرمبرغ الذي كان في القرن السابع وقطع من الصليب الحقيقي وآثار اخرى فحفظت هذه الخزانة في كنيسة القيامة واما الآثار البنائية فاتلفت كلها

وآثار الكنيس التي كشفتها سنة ١٨٦٦ في تل حوم المظنون انهُ كفر ناحوم القديمة قد أتلفت الآن لان الفرنسكانيين ردموها وزرعوا شجر التوت فوقها . وكان في مدبَّة شرقي الاردن خريطة كبيرة لفلسطين ومصر وسينا وما بين النهرين مصنوعة بالفسيفساء من اوائل القرن الخامس للميلاد فأتلف اليونان اكثرها ومع ذلك فالباقي منها يعدُّ من اعظم المكتشفات الجغرافية التي كشفت في فلسطين حديثًا

ولعلَّ اليهود الذين عادوا الى فلسطين الآن واستوطنوها قد غيَّروا فيها التغيير الاعظم . والحق اقول انني لم اكن انتظر ان ارى منهم ما رأيت فقد حوَّلوا القفار الى رياض نضرة

وجنّات غناء فاني سرت سنة ١٨٨٢ من بحيرة طبرية الى بحيرة الحولة فلم أكد اجد اثرًا للزرع في وادي الاردن اما الآن فوجدت الارض مغروسة زيتونًا ولوزًا ورمانًا ونحو ذلك من الاشجار المثمرة او مزروعة حنطةً وحبوبًا اخرى . وهناك ادلّة كثيرة على ما يمكن ان تبلغهُ تلك البلاد اذا اعتني بغرسها وزرعها او على ما كانتهُ قبلما استولى العرب عليها. وقد قيل ان اليهود لا يميلون الى الفلاحة ولكن ظهر الآن ان هذا الميل وعدمهُ يتوقفان على التربية والتدريب وقد سار اليهود في هذا السبيل بواسطة المدرسة الزراعية التي انشاوها في يافا وبواسطة الشبان الذين علّمهم البارون ادموند ده روشيلد في احسن مدارس فرنسا الزراعية . وشاهدت اليهود يفلحون الارض و يزرعونها وهم مجتهدون في ذلك اعظم اجتهاد . اقتدى سكان البلاد بهم من نصارى ومسلمين في اتقان الحرث والزرع

وممّا يذكر في هذا الصدد المناظرة القائمة الآن بين الكنيسة الروسيّة والكنيسة اليونانيّة فان الروس انشأوا مدارس كثيرة في فلسطين يعلّم فيها اللسان الروسي وغرضهم الظاهر انشاء كنيسة عربيّة مثل كنيسة البلغار . والكنيسة اليونانية تقاوم ذلك بكل جهدها معتمدة على الحكومة العثمانية . وقد رفع اليونان العلم العثماني على كنيسة القيامة هذا العام يوم عيد الفصح مع انهُ كان فيها اميرال روسي وجانب من البحارة وكان غرضهم اغاظة روسيا. وهذه اول مرة رفع فيها العلم العثماني على كنيسة مسيحية في ما اعلم

وزرت بلاد مواب وبلاد ادوم وكان معي المستر هوتستين وقد زار الكرك والبتراء قبل ذلك فكان الناس يرحّبون بنا كيفما سرنا لمعرفتهم بدو بواسطتهِ سهل عليَّ السفر وتمهدت الصعاب

ومواب وادوم نجود تحدها من الغرب بحيرة لوط والعربة ومن الشرق برية الشام وترتفع ارضها من الشمال متدئة بجبل نبا حيث الارتفاع ٢٦٤٣ قدمًا عن سطح البحر الى ما فوق البيداء جنوبًا حيث الارتفاع ٥٣٢٠ قدمًا (وهنا ذكر الخطب وصف البلاد الجيولوجي الى ان قال)

وتنقسم بلاد ادوم الى قسمين يفصل بينها منفرج بين التلال سميتهُ منفرج الشوبك لقربهِ منها والقسم الشمالي هو جبال المذكورة في كتاب المزامير ومنها سميت البلاد كلها بالجبلين . والقسم الجنوبي جبال الشراة او ادوم الاصلية . ولا توجد الينابيع الاَّ في الاودية ولذلك يضطر سكان الجبال الى حفر الصهاريج وجمع ماء المطر فيها . والارض جيدة يسهل زرعها ولكن السكان قليلون جدًّا فلا يزرعون الاَّ جانبًا صغيرًا منها . وترى البساتين كثيرة حيث يوجد الماء كما في الكرك والطفيلة والحي وعمان والهواء هناك ابرد منهُ في غربي فلسطين . ويقع الثلج في فصل الشتاء والربيع وتكون الرياح الشرقية شديدة البرد جدًّا فتجتاح الرياح الحارّة

من وادي الاردن الى جهات اورشليم فيشتدُّ الحرُّ فيها. والصيف حارٌّ ولكن هواء النجود بارد منعش دائمًا. والمطر غير قليل في بلاد موآب ولكنهُ قليل في جنوبي ادوم

وهناك آثار السكك القديمة ويمكن اقتفاء آثار السكة الرومانية الواصلة من مدبّة الى خليج العقبة وفيها حجارة رحى لم تزل حيث طُرحت وعليها كتابات قديمة مطموسة. وآثار سكة اخرى كبيرة تمرُّ بقرب الطريق الذي يسير فيهِ ركب الحج الشامي الآن ويتفرَّع من هاتين السكتين طرق كثيرة كان الرومان يحفظون بها ويبنون ابراج الحرّاس لحراستها وقد اقاموا سلسلة من الحصون من شماليها الى جنوبيها لدفع غارات البدو عنها. ويظهر من كتابة رومانية في "قصر بشير" ان هذه الحصون رُمّمت وقوّيت في القرن الرابع للميلاد

وفي البلاد خرائب كثيرة تدل على سابق مجدها واتساع مدنها ووفرة سكانها مثل الربّة ودتراس وام الرساس. ولم تُسكَن هذه المدن بعد استيلاء العرب عليها فاذا نقبت اطلالها الآن وُجد فيها آثار كثيرة ذات شأن كبير ولاسيما اطلال الربّة

وقد رأيت كتابات يونانية جديدة من الكرك وكتابات نبطيَّة في البتراء وماجاورها ولا بدَّ من وجود كتابات كثيرة موآبيَّة ونبطيَّة ويونانية تظهر بالنقب. وسمعت عن كتابات كثيرة وجدها البعض ثم طمروها في اماكنها. وقيام الجنود العثمانية في تلك البلاد الآن سهّل النقب على طلاَّبهِ ولكنهُ امّن الناس فسكنوا في بعض الاماكن القديمة واتلفوا ما فيها من الاطلال ولذلك يجب النقب عن تلك الآثار قبل ان تتلف كلها كما تلفت خريطة مدبّة

وقطعنا الاردن على جسر جيث كان الجسر القديم المرسوم في خريطة مدبّة المشار اليها آنفًا وقطعنا سهل موآب وصعّدنا في التلال شرقيهُ وسرنا في السكة الرومانية القديمة ثم درنا وبتنا عند عرب نازلين فوق عيون موسى وقمنا في اليوم التالي وسرنا في ارض زراعية خصيبة الى المعاين وهناك اناس من اهالي الكرك رحلوا بعض البيوت القديمة وسكنوا فيها. ثم نزلنا الى الحمائم في وادي الزرقاء التي زارها هيرودس الكبير. وواصلنا السير بعد ذلك الى ان بلغنا الكرك (وذكر اسماء الاماكن التي مرَّ بها وبجانبها اسماءها القديمة) فرحّب بنا قواد الحامية العثمانية في الكرك وارشدونا الى الرجم الساكنين فيها فنزلنا في بيتهِ وابتدأنا ان نشاهد حصن الكرك كلهُ والمباني المتصلة بهِ. واسافل الحصن من عمل الرومان او من قبلهم ولكن الحصن نفسهُ والسور المحيط بالكرك من بناء الصليبيين وهما من اجمل مباني القرون الوسطى الحصينة. ولم يُزَد على الحصن شيء من ايام رينود ده شاتيلون الذي قتلهُ صلاح الدين بعد واقعة حطّين (انظر المقتطف صفحة ٣٩٦ مجلد ١٠) وهناك كتابات من ايام بيبرس على الابراج التي رُمّمت في عهده.

والسراديب الاربعة المنقورة في الصخر التي يوصل منها الى الكرك قديمة جدًّا من عهد المؤابيين. وفي المدينة قليل من الكتابات الرومانية واليونانية وقد نسخت بعضها

وسرنا من الكرك جنوبًا قبلنا المكان الذي دفن فيه جعفر بن ابي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة في غزوة مؤتة وهي الغزوة الاولى التي لقيت فيها جيوش المسلمين جيوش الروم. وقد ارتاب البعض في ان جعفر دُفن في ذلك المكان لكن احد الضباط العثمانيين نقب فوجد كتابة كوفية فيه تؤيد صدق الخبر (ووصف الخطيب هذه الغزوة وترجم رجز جعفر الذي يقول فيه يا حبذا الجنة واقترابها وفي ترجمته نظر. وتفصيل الغزوة على ما ذكره ابن خلدون وابن الاثير ان النبي امَّر على بعث الشام مولاهُ زيد بن حارثة وقال ان اصابهُ قدر فالامير جعفر بن ابي طالب فان اصابهُ قدَر فالامير عبد الله بن رواحة فان اصيب فليرتضِ المسلمون برجل من بينهم يجعلونهُ اميرًا عليهم . . . فنهضوا حتى اتوا الى معان من ارض الشام فتأمم الخبر بان هرقل ملك الروم قد نزل مؤاب من ارض البلقاء في مئة الف من الروم ومئة الف من نصارى العرب اليادين هنالك ثم التقت بهم جيوش الروم بقرية من البلقاء يقال لها مشارف وانحاز المسلمون الى قرية يقال لها مؤتة وكانوا نحو ثلاثة آلاف فالتقى الناس عندها واقتتلوا فقتل زيد بن حارثة ملاقيًا بصدره الرماح والراية في يدهِ فاخذها منهُ جعفر بن ابي طالب فقاتل وهو يقول

يا حبذا الجنَّة واقترابها طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة انسابها
عليَّ اذ لاقيتُها ضرابُها

فلما اشتد القتال اقتحم على فرس لهُ شقراء فعقرها ثم قاتل القوم حتى قُتل وهو اول من عقر فرسهُ في الاسلام فوجدوا بهِ بضعًا وثمانين بين رمية وضربة وطعنة فلما قتل اخذ الراية عبد الله بن رواحة ثم تقدَّم فتردَّد بعض التردُّد وقال يخاطب نفسهُ

اقسمت يا نفس لتنزلنَّهْ طائعةً او لا لتكرهنَّهْ
ان اجلب الناس وشدوا الرنة مالي اراكِ تكرهين الجنَّهْ
قد طالما قد كنتِ مطمئنَّهْ هل انتِ الاَّ نطفة في شنَّهْ

ثم صمَّم الى العدو فقاتل حتى قتل فاخذ الراية ثابت بن ارقم من بني العجلان ورفعها لخالد بن الوليد فانحاز بالمسلمين وعاد بهم . وهو الذي فتح الشام بعد فر)

وقمنا من جعفر وقطعنا وادي الحسي وزرنا طفيلة ولم تزل مسكونة وفيها ينابيع كثيرة

وبساتين نضرة وكثير من اشجار التين والزيتون وانتقلنا منها الى غرندال فسهل ادوم ومنهُ الى وادي الشوبك فسرنا فيهِ الى سفح الاكمة التي بني عليها ذلك الحصن الشهير بناهُ الملك بلدوين الاول في طريق القوافل بين مصر والشام

وقد حاول صلاح الدين الاستيلاء على الشوبك مرارًا فعجز عنهُ ولم تسلم حاميتهُ الاَّ بعد ان كادت تهلك جوعًا . واسوارهُ بديعة البناء وفيهِ آثار كنيسة من عهد الصليبيين وبئر عميقة يوصل الى قاعها بمدرج فيها ٣٧٥ درجة على ما قيل . ولم نرَ فيهِ آثارًا اقدم عهدًا من عهد الصليبيين ولكن يحتمل ان امراء ادوم كانوا ينزلون فيهِ

ونزلنا من الشوبك ومضينا الى البتراء ودخلنا من المكان المعروف بالشق ونزلنا في خزنة فرعون ثم صعدنا على جبل هور ونزلنا البيضاء والبارد وسخنا بعض الكتابات النبطيَّة ومررنا بقرية الحي ونزلنا الى معان وهي منزلة من منازل الحج الشامي وهناك معانان معان الكبرى الى الجنوب ومعان الشامية الى الشمال وفيها كليهما ماء كثير وبساتين نضرة وركب الحج ينزل بينهما ودار الحكومة في حصن بناهُ السلطان سليم العثماني وقد كان يهتم بمنازل الحج وهناك آثار كثيرة من حجارة وعمد تدلُّ على ان البلاد كانت عامرة في زمن الرومانيين . وعلى نحو ميل من معان حوض كبير كان يجرُّ الماء اليهِ من معان الشامية وهو والخرائب التي بجانبهِ من عهد بني امية . ولا بدَّ من ان يكون بنو اسرائيل قد نزلوا معان في ارتحالهم الى الارض المقدسة لانهم على ثلاثة ايام من العقبة . . . ثم عدنا الى الكرك وسرنا منها الى لجون وهي مكان حصين كانت تنزلهُ الجنود الرومانية وفوقهُ اكمة وخرائب كثيرة اتخذها البدو سكان تلك البلاد الآن مدفنًا لموتاهم فيطرحونهم فيها رجالاً ونساء واولادًا من غير دفن . وبعد نحو ساعتين وربع مررنا ببيوت كثيرة تسمى رجوم رشان سقوفها صفائح من الحجر ولعلها كانت مدافن . ثم مررنا الى عرب السليطة وبتنا عندهم ونزلنا في اليوم التالي قصر بشير الذي وصفهُ الدكتور بلس ورسمهُ . وشاهدت البيوت المسقوفة بصفائح الحجر في ام الرساس ومضيت منها الى خرائب تل وبيوتها من الحجر ايضًا مثل بيوت ام الرساس ومنها الى مدبَّة

وشاهدتُ في مدبَّة الخريطة المصنوعة بالفسيفساء وكانت تحوي رسم مصر وسينا وفلسطين وسورية وقسم من العراق وهي تمثل تلك البلدان قبل ان فتحها العرب وفيها حجارة بالوان مختلفة تدل باختلاف الوانها على مختلف البلدان . وقد نقل البعض رسمها ولكنهم لم يضعوا الالوان فيهِ وحبذا لو رسمها احد بالوانها قبل ان تتلف . وعدنا من مدبَّة الى اورشليم